في علمه وكرمه وسخائه
وعظيم فتوته ووفائه وخوفه وعلو همته
وورعه وزهده وموعظته وحريته ودلالته
على الله وجمعه عليه وسوقه الأقوام
بحاله ومقاله إليه

وفيه ثلاث فصول :

في علمه وكرمه وسخائه وعظيم فتوته ووفائه

أما علومه الظاهرة ففاز منها بأوفر نصيب، وحاز من فروعها وأصولها السهم والتعصيب، ورقى إلى كل مكرمة وفضيلة بسهم مضيب، ولا يحدّث في علم إلا تحدث فيه، حتى يقال: إنه لا يحسن غيره، سيما علم التوحيد والتفسير والحديث وعلم السير وعلم التصوف والأحوال وسائر العلوم النقلية من: نحو وعروض وغير ذلك، وقد شارك العلماء في جميع علومهم الظاهرة، ولم يشارك في العلوم الباطنة، بل زاد على الفقهاء زيادة لا يمكن وصفها من حل المشكلات، وما يعرض من الشبه المعضلات، كما ستقف عليه إن شاء الله في أجوبته عند محلها، ومهما تكلم رضي الله تعالى عنه في مسألة في علم الظاهر إلا خرج منها لعلم الآخرة، لا سيما التفسير والحديث، لما احتوى عليه باطنه من خوف الله تعالى ومراقبته، وعدم التفاته لزخارف الدنيا، كأنه يشاهد الآخرة بين يديه، فإقراؤه للعلوم الظاهرة رجعت كلها في الحقيقة علوم باطنية، وكثيراً ما يقول مما معناه: العالم على الحقيقة، من يشكل الواضح ويوضح المشكل، لسعة علمه وكثرة فهمه وحسن نظره وتحقيقه، فهذا الذي يجب حضور مجلسه والاستماع من غرائبه وفوائده وعلمه، كما قال الشيخ ابن عرفة في أبياته المنسوبة له:

إذا لم يكن في مجلس الدرس نكتة ... بتقرير إيضاح المشكل صورة
وعزو غريب النقل أو حل مشكل ... أو اشكال أبدته نتيجة فكرة
فدع سعيه وانظر لنفسك واجتهد ... وإياك تركاً فهو أقبح خلة

وأما علومه الباطنة الحقيقية المستمدة من الأنوار الإلهية فهو قطب رحاها، وشمس ضحاها، يقول: من سمع كلامه فيها هذا كلام من ليس وطنه إلا غيب الله تعالى، وهذه العلوم محلها القلب، وهي معادن الأسرار ومطالع الأنوار، ولهذا لا يمكن التعبير عنها، ولا يعرف حلاوتها إلا من اتصف بها وذاقها، فلهذا رضي الله عنه يؤثر حب مولاه العظيم على غيره، ويراقبه، ولا يأنس بأحد، بل تجده يفر إلى الخلوات كثيراً، قد طال فكره في معرفته تعالى، فانكشفت له عجائب الأسرار، وتجلت له الأنوار، كما قال القائل:

ومنفرد بالله هام بحبه ... فليس له أنس بشيء سوى الرب
تفرد في الدنيا لطاعة ربه ... فأورثه علم الكتاب بلا ريب
وآثر حب الله فانكشفت له ... عجائب أسرار ثواباً على الحب
فمن كان في دعوى المحبة صادقاً ... تجلت له الأنوار من غير ما حجب
فيرتاح في روض المعارف دائماً ... ولذتها أشهى من الأكل والشرب
تخاطبه الأحوال من كل جانب ... فيفهم عنه بالضمير وبالقلب
يكاشف بالأسرار من ملكوتها ... فيأتي عليه الفيض من عالم الغيب

إلى غير ذلك مما قيل، ولا شك أن السادات المتصفين بأحوال الصفات هم الذين ورثوا الأنبياء حقيقة، واقتدوا بهم ظاهراً وباطناً، فجمعوا بين الشريعة والحقيقة على أكمل وجه، فقد فاقهم سيدنا رضي الله عنه، وحصل له ما حصل لهم، فهو رضي الله عنه القدوة للمقتدي والهداية للمهتدي، لجمعه بين لطائف الأحوال وصحيح الأقوال والأفعال، باطنه حقائق التوحيد وظاهره زهد وتجريد وكلامه هداية لكل مريد، **وأما كرمه رضي الله عنه** فمن أخلاقه وسجاياه كثير إنفاقه في سبيل الله وعطايا ربي على ذلك، منذ نشأ يتقلب شاء جعل الله الكريم له وصفاً طبيعياً، ثم صرفه فيه تصريفاً شرعياً، إلى أن أرقاه سبحانه مرقى الكمال، وصبره ممن لا يشهد في ذاته ملكاً لنفسه ولا مال، فجمع الله له بين الحالتين جمعاً صنعاً من الله، ومن أحسن من الله صنعاً، فكانت وقائعه في ذلك عظيمة، وأياديه فيه جسيمة، وأفعاله عجيبة ومآثره غريبة نادرة من نوادر الزمان. وآية من آيات الله برزت للعيان، يعطي عطاء من لا

يخاف الإفقار، ولا يبالي بإفراط ولا بإكثار، وكيف يبالي من تخلى قلبه عن العرض الفان، ورقى مقام الإحسان والعرفان، وصعد مصعد الكمال ومراتب فحول الرجال، الذين تركوا النفاسين والأرباح، ووهبوا النفوس والأرواح، فهم كرماء الخليقة والأسخياء على الحقيقة، فلا فضل إلا إفضالهم، ولا نوال إلا نوالهم، إذ من عين الجود ينفقون، وبوابل فيضه يدفقون، لا يرون لهم ملكاً ولا إعطاء، ولا تركاً فأنّى يوصف أمرهم، أو يقدر في ذلك قدرهم، ولكنا لا نتعرض لشيء مما يرى لشيخنا وأستاذنا رضي الله عنه من جزئيات القضايا، وبعض ما شهد له من وافر الإحسان والعطايا، إذ المقصود ذكر الأخبار ونشر تلك المكارم والآثار، فدأبه رضي الله عنه الانفاق في سبيل الله والإطعام لوجه الله، يفرق ماله في ذلك شذر مذر في كل وقت من رخاء وشدة في حالة سفر وحضر، من كل ما يتناوله من المكتسبات من عين وعرض وفواكه وخضر، ما بين مواساة ونفقة أو صلة رحم أو صدقة، ويقول المال مال الله، وإنما أنا خازن الله ومسخر فيه ومستخلف، لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] ولقوله عليه الصلاة والسلام: «**يَدُ الله مَلأى لَا تُغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ أَرَأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ وَبِيَدِهِ المِيزَانُ يُخْفِضُ وَيَرْفَعُ**» أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، **ومن عادته رضي الله عنه**، وخصوصاً ما كان من قبيل الصدقات المبالغة في الإخفاء جداً، حتى لا يشعر إنسان بما يصدر منه من الإحسان في عموم الأوقات وغالب الأحيان، فإذا أعطى أحداً شيئاً لا يعطيه بيده، إنما يأمر بذلك، ويرسل به، ويوصي المرسل معه بالكتمان طلباً للوجه الأكمل، الذي فضل الله في كتابه سبحانه بقوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ٣] وإبقاء على المعطى بفتح الطاء، وحرصاً على إعلاء همته، ليشكر نعمة سيده، ولا يتشوق للذي جرت المنحة على يده، ويقول: إني إذا تشوّق أحد إليّ انقبض قلبي عنه، فلا أريد أن أعطيه شيئاً، فإذا انقطع نظره عن الخلق، كنت أحرص الناس على إعانته وإيصال العطاء إليه، وأجدني أستحلي مناولة ذلك حين أعطي مال سيدي لعبد سيدي، وهو لا يلتفت إليّ ولا يشعر بما لديّ وربما يتولى الإعطاء بيده، لكون المعطى له لا يشعر بمن أعطى، وقد يعطي بيده أيضاً، إذا كان المعطى له من الموالين له من الأصحاب، وغيرهم ممن يعرف أنه لا ينوه به ولا يفشي سره، وما من أحد من كل الأصحاب إلا لحقه نائله، ووسعته عوارفه وفضائله، فلا يلقى بعضهم بعضاً إلا حدث بعطاياه دائماً من كل شيء، ثم لا يقدر أحد أن يواجهه بثناء عليه لأجل ذلك، أو يذكر له أو يشيع خبره، وإذا أكل أحد الطعام عنده، فقال له كثّر الله خيرك رده إلى شكر نعمة الله وشهود ما تفضل الله سبحانه وأولاه، ويقول: كلوا من رزق ربكم واشكروا له، ويقول: المنة لله وحده، **ومن كراماته** الجارية في هذه العطايا: أنه لا تتصل عطيته أحداً إلا وجدته على حين ضرورة وشدة احتياج، لا يحد ما يحاوله ولا ما يناوله، حتى كأن سيدنا رضي الله تعالى عنه، بات ينظر إليه، أو ظل معه مطلعاً عليه، فيوقع ذلك كله مواقعه، وينزله مواضعه على نور من ربه وبصيرة في أمره، ويوفي فيما يعطيه كل ذي حق حقه من قريب أو بعيد، جامعاً بين العدل والإحسان، ومراعياً لحال كل إنسان، فيمتع أولاده وأهله وعياله، ويولي عليهم بره ونواله، ثم يوسع الأقارب والأصحاب مواصلة، ثم الأباعد صدقة ومفاصلة، شأنه في ذلك كله بديع، وحاله في ذلك بأسره رفيع، **أما شأنه في** داره وعياله: فإكثار الطعام والإطعام، والتوسعة والإنعام، والإفضال والإكرام، لا يدع شيئاً إلا أمتعهم فيه على وجه شرعي من قصد كفايته إياهم، وتنعيمهم بأنعم مولاهم، لا على الرفاهية والترفه مكفولين بخير كفاية، محفوفين بخير رعاية ظاهرة، عليهم أنعم مولاهم واضحة، عليهم آثارها ما شئت من عفاف وقناعة وكرم نفس وعلو همة، قد اعتادهم السخاء حتى ألفته نفوسهم، وأثمرت منه عروسهم، يدخر لهم لإغناء نفوسهم فوق ما يحتاجون إليه، ويصرح أحياناً بأنه لولا الرفق بهم والجري على مقتضى عقولهم وصونهم عن أن يتشوقوا لما بأيدي الناس، ما ادخر شيئاً، فيخزن من قوت سنتهم طعاماً وإدماً وعسلاً وفاكهة ما يكفيهم ويكفي أضيافه وأضعاف أضعافهم، ليعول به الأضياف والضعفاء والمساكين المنتسبين إلى الله ممن هو ملازم له ومضاف إليه في عداد أهل نفقته، أو من يرد عليه، فينفق على عدد عديد، فيؤكل عند الوسق من القمح في نحو يومين أو ثلاثة، وأما في أوقات وفود الزائرين إليه، فلا نقدر لذلك قدراً، فلا تتوفر له عولة بالغة ما بلغت، وجميع ذلك كله يكتاله ويجلبه من البلدان البعيدة لعدم وجود الزرع بالمكان الذي هو فيه، لأن البلد ضعيفة جداً، ولا يخلو عن كثرة الأضياف، أما الرجال فخارج الدار في أمكنة متعددة، وأما النساء فداخل الدار، ويتفقد الغرباء أهل النسبة ويطعمهم، ويوصي من يفعل ذلك لهم رضي الله

عنه، **ومن عادته**: أنه لا يخرج من داره شيئاً لأضيافه أو غيرهم إلا بعد كفاية من بداره منه، وإن أخرج يوماً طعاماً لم يكن فيها غيره حاضراً عوضهم آخر مثله لا محالة، وينبه على ذلك ويربي به غيره مخافة التوصل لحق بترك آخر، **ومن شأنه رضي الله عنه**: حفظ الطعام واحترامه، متى فضل شيء منه التمس في الحين من يأكله، وإذا خرج الطعام من داره للأضياف، وفضل عنهم يتصدق به، فلا يرجع إلى الدار منه شيء أصلاً، لأنه خرج لله تعالى، وعادته الكريمة، رضي الله عنه، إجراء الصدقات على الليالي والأيام، ففي كل جمعة يفرق القمح على ضعفاء البلد، كل واحد ما يناسب حاله من الضعفاء والأيتام والأرامل، وكل محتاج، وكذلك في كل يوم عيد، وقت الضحى، يفرق الخبز على الصبيان في باب داره، هكذا فعله، رضي الله عنه، مع من ضعف عن القيام بمؤنة نفسه من سائر الأصحاب فيما يرجع إلى الإعانة في النفقات، والبركة من الله سبحانه، وما دعوه أولياءه إلا متنا، وما أسدى إليهم إلا حسناً، وقد شوهدت البركة معه في ذلك، وفي سائر أموره، فما زاد حسباناً إلا زيد خيراً وبركة من الله سبحانه، وهكذا دأبه، رضي الله عنه، في سائر أحواله، وإذا تأملت ما يخرج من انفاقات وارفاقات، وجدت ما لا يقدر عليه إلا المؤيدون أمثاله، الذين باعوا نفوسهم وأرواخهم وأموالهم وأرباحهم على الله وفي سبيل الله، لا يريدون غيره، ولا يعولون على سواه، هذا شأنه رضي الله عنه، وأما ما يصدر عنه في معاملة الأباعد من المواساة الجليلة والصلات الجزيلة، فأعظم من ذلك كله، لكونه يجمع ما يجمع، بل يقبضه، كذلك مجموعة ثم يعطيه دفعة واحدة، لكن لا يطلع على ذلك إلا النادر، وقد اطلعت عليه مراراً، صرف المال الذي يخشى صاحبه الفقر، وذلك لما قررناه من عادته، رضي الله تعالى عنه، في إخفاء الصدقات، وإنما يتفق الاطلاع على بعضها، والنذر القليل منها، كما إذا تعرض له أحد يطلب معاملته، أن يراسله بمراسلة، فلا ندري ما يفعل إخفاء لصدقاته، **ومن كراماته العظيمة** الجارية العتق، فقد أعتق في يوم واحد جميع من بداره من الإماء، وكان حينئذٍ خمس عشرة، فاعتقهن دفعة واحدة، وكذلك أعتق بعد ذلك ثلاث عشر رقبة من العبيد البالغين، يكتب لكل واحد رقعة، وجعلها له في عنقه، وقال له: أنت حر في سبيل الله، وغير ذلك مما لا نطلع عليه أصلاً، ولا نعلم له سبباً وفعلاً، رضي الله عنه وأرضاه، ومتعنا برضاه، **وبالجملة** فسخاؤه، رضي الله عنه، عظيم، وإحسانه جسيم، ليس على سنن ما يؤلف، وإنما هو خارق للعادة، وخارج عن الأمور المعتادة، لا يناظره فيه مثله من أهل الخصوصية فضلاً عن غيرهم، إذ من عادة المشايخ الفاعلين مثل ذلك، أن يقبضوا ويدفعوا، فيصرفون ما يؤتون به من مال الله على عباد الله، لا يدخرون شيئاً، وهو رضي الله عنه، لا يدخر شيئاً، وكان قبل هذا الوقت، لا يأخذ من يد أحد البتة، حتى وقع له الإذن من رسول الله ﷺ، لا يرد على أحد شيئاً أصلاً، وتخرج من يده الأموال العريضة والعطايا العظيمة التي لا يتيسر مثلها للأغنياء من التجارة، وما ذلك إلا آية من آيات الله، وبركة محمدية من آثار وبركة سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، ووراثة منه ومقاما أقامه الله فيه، وضماناً منه ﷺ، له بالغنى التام الذي لا فقر بعده على الدوام، وقد كان بعض الأصحاب من خاصته، دخل ليده منه مال، فأعطاه منه، ثم أراد إعطاء ما بيده جملة وتفصيلاً، فعلم به سيدنا رضي الله عنه، فقال له: لا تفعل ودع مالك عندك، لأنك إن فعلت ذلك وجدت فقدان ذلك من قلبك، وأثر ذلك فيك فيحصل لك بذلك ضرر عظيم، وتنقطع المحبة من أصلها، فلا تقتد بي في هذه العطايا، فأنا إن رأيتني فعلت شيئاً منها ففي ذلك أقامني الله عزّ وجلّ، **وأما فتوته رضي الله عنه** فقد تقدم ما ينبئ عن شيء منها في الباب قبل هذا، عند التعرض للكلام على بعض أخلاقه، رضي الله عنه، والمروءة شعبة منها، والفتوة من الأخلاق الجامعة لأنواع الأوصاف الحميدة والخلال السديدة: كالحلم والعفو والصبر والسخاء والوفاء والستر على عيوب الأصدقاء، وإعانتهم ومعاملتهم بجميع الإحسان، ومرجعها إلى الإيثار والسخاء العظيم، وهو السخاء بالنفوس، وأصلها كما قال القشيري، رضي الله عنه: أن يكون العبد ساعياً في أمر غيره دائماً، وقد بيّنها أهل الطريق بتفسيرات أوردها في الرسالة فليطالعها من أرادها، وعبروا عنها بعبارات، كل بحسب ما غلب عليه، وبحسب نوع من أنواعها، ففسروها بكف الأذى وبذل الندى، وهي عبارة الجنيد رضي الله عنه، وبالصفح عن عثرات الإخوان، وبأن تنصف ولا تنصف، وبأن إذا أعطيت آثرت، وإذا منعت شكرت، وبأن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك، وبالوفاء والحفظ، وبفضيلة تأتيها، ولا ترى نفسك فيها، وبحسن الخلق وباتباع السنة، وأكثر ما تستعمل عندهم في المواساة والعفو عن الإساءات. قال الشيخ أبو مدين، رضي الله عنه، في قصيدته الرائية:

وبالتفتي على الإخوان جد أبداً … حساً ومعنى وغض الطرف إن عثرا

ولشيخنا وأستاذنا رضي الله عنه من هذه الأوصاف أعظم نصيب، والسهم الذي ما عثر عليه في هذه الوقت مصيب، ورثها بالفرض المقسوم له بالتعصيب، وحاز منها أسمى مرتبة وأسنى مرقبة وأعلى مقام وأكمل مرام، **وأما حلمه وعفوه**: فشأنه رضي الله عنه: الصفح عمن اشتغل بأذيته، وعدم المؤاخذة له، والنظر فيه بعين الحقيقة والتماس المعذرة له، ويقول: إذا نظرت إلى الناس وما يجري عليهم من قدر الله عذرتهم، وإنما يجيء الملام من عدم شهود أمر الله النافذ، ويحن مع ذلك عليهم، ويشفق من حالهم، مخافة أن يدركهم الهلاك بسبب تماديهم على فعلهم ذلك، وكثيراً ما يعاملهم حرصاً على إزالة ضغنهم، ومحو ما في قلوبهم، وإذا اشتكى له أحد من أصحابه إذاية أحد، سلاه عن ذلك، وحمله على الحلم والعفو، وحضّه على الاشتغال بما يعنيه، ولا يحب المتعنتين بنصرة أنفسهم، ولا المشتغلين بملاحاة الرجال، ولا يحب الغلظة ولا الفظاظة ولا أهلها، ويقول: إن الحليم يحلم الله عليه، ويستشهد بقوله ﷺ، في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم في المستدرك عن ابن عمر، قال: **«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُم منْ فِي السَّمَاءِ»** اهـ. ويترحم على الكبير والصغير وكل ضعيف مستضعف، ويوصي من آتاه من الولاة بالعفو عن المساكين، ويقول لهم بضعفائكم ترحمون، ولا عمل أحسن من ذلك لكم، ومن عفا عفي عنه، ويعرض عن جهل الجاهلين، ويصير لجفوة الجافين، ويعفو عن إذاية المؤذين، بل يحسن إلى من أساء إليه، ويحن عليه بعد التجاوز عنه، ويتعطف عليه، ولا يزال يلاطفه قولاً وفعلاً، ويعامله بالجميل وبالتي هي أحسن، ويبر به، ويحرص على إيصال الخير إليه رحمة له وشفقة عليه، حتى يستحي ذلك المسيء غاية الحياء، ويخجل غاية الخجل، ويتعجب من عفوه عنه، ثم تفضله عليه، ومن سابق سيئاته التي عادت كالحسنات لديه، كما شاهدنا ذلك، وقع له مع بعض الإخوان، فما زال يحلم عنه ويحسن إليه، حتى كان أحسن الأحباء إليه، والكلام على حلمه وعفوه أوسع من هذا، وقد تقدم بعض ما هو منه في السيرة رضي الله عنه، **وأما وفاؤه رضي الله عنه**، والوفاء نوع من الفتوة، وعطفه في الترجمة عطف خاص على عام، فمنه أنه إذا استلف شيئاً قضاه بسرعة، لا يتوانى في ذلك ولا يغفل البتة، وما حفظ له تأخير قضاء دين قط، حفظاً من الله له وكفاية إياه، ومنه وفاؤه رضي الله عنه بمعاملة الإخوان، وحفظ عهودهم وعهود أصحابه في كل أوان على ما قدمناه قبل مواصلته إياهم أتم المواصلة، وتعطفه عليهم أحسن التعطف، وإحسانه إليهم كل الإحسان، فلا يزال رضي الله عنه يحفظ لهم وداً، ولا ينسى لهم طول الزمان عهداً، ولا يألو في إكرام من أمكنه إكرامهم جهداً، وهذا كله من حسن عهده وتمام وفائه وحسن مودته في الله، وإخائه ومنه وفاؤه في معاملة مولاه وعبادته له، وقيامه لله في سائر حركاته وسكناته، حيث لا يقطع شيئاً ابتدأه، ولا يرجع عن شيء لله عزم عليه، وأعظم بذلك وفاء ومنة من الله وإعطاء، ومن عظيم فتوته وإيثاره وسعيه في منافع الغير، وأوطاره ما هو عليه من الإيثار، وأوصافه فلا يكاد يقاربه في ذلك أو يضاهيه، تأييداً من الله في ذلك كله في إعطائه وإيثاره، والكلام على سيدنا وأستاذنا رضي الله عنه أوسع دائرة من أن نستوفي أقل قليل، فضلاً عن أن نحيط بقدر جليل، فاقتصرنا على ما لا بدّ منه للحاجة إليه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

في خوفه وصبره وعلو همته وورعه وزهده وموعظته وحريته

قد بلغ سيدنا وشيخنا رضي الله عنه من الخوف والصبر وعلو الهمة في الطريق والسمو فيها على أهل هذا الفريق، مع ما جمعه من الخلال الحميدة والخصال السديدة والمقامات العلية والأحوال السنية، ما أدرك فيه غاية همم السابقين، وأعجز نهاية همم اللاحقين من الورع والزهد والموعظة والحرية، ما عدم فيه النظير هذا الوقت بالكلية، ولم يدع مطعماً لأحد فيه، ولا أمنية إذا رأيت سيره في ذلك، علمت أنه مفرد أوانه وسيد الورعين والزاهدين في زمانه، لا يجاري في ذلك شأوه، ولا يدرك فيه خطوه، كما لا يخاض بحر عرفانه، ولا يسبق فرس ميدانه، علقت همته العلية بمعالي الأمور، فتجاوز الأواسط منها إلى الصدور، لا يقف عند الدون، ولا يحجب عنه مصون:

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجل من الدهر

وكيف تقف همة من ليس مناه إلا سيده ومولاه، قد خلف من وراءه كل مشتهى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] فلا همة أجل منها، ولا تبيان ينبئ عنها، وفيها اجتمعت الهمم بأسرها ومعاني الأمور عن آخرها، من التنزه عن سفساف الأمور مجافاة كل محذور، وكرم النفس وإبايتها وعفافها وصيانتها، والاستغناء عن الخلق وقطع النظر عنهم، والاكتفاء بالواحد الحق، وطرح ما كان منهم وما بين ذلك من الأوصاف الكريمة والطباع المستقيمة التي عند علو الهمة مأواها، ومنها أساسها ومبناها التي تقدم ما ينبيك عن أن سيدنا، رضي الله عنه، ركب متن سماكها، وظفر بملاكها، وحاز جميعها أصولها وفروعها، والذي يختص بهذا الباب ذكره، ويناسب هذا المقام بثه ونشره، هو ما له من الخوف والصبر وعلو الهمة في السلوك، ورفعها عن كل مملوك **فأما خوفه رضي الله عنه**، فهو كثير الخوف من الله، متطاول الأحزان في سبيل الله، وربما سمع لصدره أنين ودوي من شدة خوفه، لا سيما إن كان في خلوته مستغرقاً في الذكر في أوقات جلوته، لا يشعر بمن يحضر معه في حضرته لاستغراقه في المذكور، وغيبته دخلت عليه مراراً لخلوته، فلم أستطع أن أواجهه بالخطاب لهيبته.

وأما صبره رضي الله عنه فلا خفاء بما له من الثبات في مركز الصبر، فلا يزال، رضي الله عنه، يقابل من أساء إليه بالإحسان، حتى صار كل من ينكر عليه يقر له بالفضل والعلم والحلم والولاية الكبرى وعظيم المكانة وكمال الإحسان، فلما رأوا ذلك منه، وصار ذلك عادة، ولم يلتفت إلى ما هم عليه من الإذاية وعدم الإحسان، رجعوا عما كانوا عليه من الإذاية والإضرار، وتابوا إلى الله، وسألوا منه الصفح والعفو والاستغفار، فعادوا إلى أحسن حال وأكمل مقال، يطلبون من سيدنا رضي الله عنه أن يسامحهم ويعفو عنهم، ويتجاوز عنهم ويسامحهم، ويدعو لهم ويحن عليهم، ويشفق منهم ويتودد إليهم، ويتعاهدهم ويتفقد أحوالهم، ويسأل عنهم، فهذا حاله رضي الله عنه الذي لا يقدر عليه أحد إلا أكابر الصديقين وأصفياء العارفين، ومع كثرة اشتغاله بهذه الأمور، لا يفرط في أنواع الطاعات، ولا يفوته شيء من القربات، بل ما زاد إلا جداً واجتهاداً في الطاعة، فإذا أتى وقته الذي يتفرغ فيه للعبادة، نبذ كل السوي وراءه، وأقبل على الله بما أهّله له، ولما أراده، **ومن عظيم صبره**: صبره على الأمراض في خاصة نفسه وفي داره وعياله، فلا أصبر منه، فلا يخلو من الأمراض في داره، على الدوام، ولا في نفسه على ممر الليالي والأيام، فصبره رضي الله عنه للمشقات، وتحمله للمعضلات لا تقدر عليه الجبال الراسيات، وكل من شكى إليه سلاه بالصبر، وإن هذه الدار إنما خلقت للبلايا والرزيات، **وأما علو همته رضي الله عنه** في سلوك الطريق، فقد تقدم في باب بدايته ما يدل على بلوغه في ذلك النهاية وكمال الغاية، فبالوقوف على ذلك يتبين ما له من القدم هنالك، ويدل عليه إشاراته وكلامه ومكانه من التحقيق ومقامه، إذ هؤلاء المخصوصون رضي الله عنهم، إنما يتكلمون بحالهم، وينبئون عن الطريق على حسب سيرهم فيه وترحالهم، ولا تجد كلامه رضي الله عنه إلا رافعاً لهمتك إلى الله، صارفاً لك عمن سواه، لا يقف بك دونه، ولا يرضى لأحد الالتفات لغيره، ولا النظر إليه في شيء من الأشياء، ويتكلم في ذلك بكلام عال نفيس، يعجز

العقول فهمه، ويعوز القلم خطه ورسمه ويعلم ذلك من تقريراته وكلامه وعباراته وإشارته وحل مشكلاته في فنون العلوم بأسرها، عند جوابه على المسائل في إملائه، وقد ضرب هؤلاء أهل الظاهر، وبين علوم العارفين بسور، وألقى بينهم وبينها حجب وستور، ويفتح الله على من يشاء من عباده، ويخص من شاء بعوارف معارفه وإمداده، كما قيل:

ما أبينت المعالم إلّا ... لتراها بعين من لا يراها

فارق عنها رقي من ليس يرضى ... حالة دون أن ترى مولاها

والغارفون من بحر واحد يغترفون وعلومهم نتائج يقين وإيمان، لا نتائج دليل وبرهان، جعلنا الله في حماهم ورزقنا محبتهم ورضاهم **وأما رفع همته** عن الخلقي، فإنه رضي الله عنه في غاية من الانقطاع عنهم إلى الله سبحانه لا يجوز إلا إفضاله وإحسانه، قد أعرض عنهم لما أقبل على مولاه وخلفهم فيما خلف وراه، لا يبالي بإقبال منهم ولا بإعراض ولا بسخط ولا بتراض، سواء المقبل والشارد والمقارب والمباعد والذام والحامد والمقر والجاحد، لا ركون له إليهم ولا معرج له عليهم، غنى عنه بمولاه واكتفاء بما به تولاه، لا يواليهم ظاهراً كما يشاركهم فيما هم فيه باطناً، قد قطع عنهم منهم ممره ونبذ كل أحد نفعه وضره، فلا يقبل من أحد كائناً من كان من قريب أو بعيد قليلاً أو كثيراً ولا جليلاً ولا حقيراً، حتى لا يقدر أحد أن يسومه بعطية ولا بهدية، نشأ رضي الله عنه على هذه السيرة السنية والأحوال المنيفة السنية ولم يزل على ذلك حتى وقع له الإذن من رسول الله ﷺ بالقبول وعدم الرد، فعند ذلك صار لم يرد ولكن هناك من يقبضه ويتصرف فيه كما شاء في داره وغير ذلك من سائر التصرفات، وبعض يقبضه لكن يصرفه فيما يظهر له من المواساة للمساكين وذوي الفاقات، ولا يغفل عن مجازاة من أحسن إليه ويقبل منهم في الظاهر ويجازيهم بالدعاء وغير لأجل أن لا تكون لأحد منة عليه، لأنه رضي الله عنه تأبى همته أن تكون للخلق يد عليه لفساد الزمان وأهله وفساد أغراضهم، وقد شاهدت يوماً وأنا حاضر عنده وأتاه رجل فقال له: يا سيدي جعلت لك من مالي كذا وكذا محبة فيك وهدية لك، فقبل منه ذلك وطرحه بين يديه، ثم أسر له في أذنه قال له: سيدي أطلب منك أن تفعل لي ما هو كيت وكيت فقال له سيدنا رضي الله عنه: ارفع متاعك، ولم يقبله منه وكنت جالساً أيضاً بين يديه فأتاه إنسان فسلم عليه وقبل يديه ودفع لي دراهم بقصد الزيارة لسيدنا رضي الله عنه فقال له: يا سيدي خذ هذه الصدقة التي أتيتك بها فقال: اردد عليه متاعه، وقال له: لا تحل لي الصدقة وإنما أنا غني عن الصدقة، ويتحرز من مقاصد العامة غاية ويدفعهم عنه بالتي هي أحسن. وسئل يوماً رضي الله عنه عن سبب عدم قبول الهدايا مع أن النبي ﷺ كان يقبلها فقال: كانت الهدية هدية واليوم صارت رشوة، فإن الناس إذا أهدى أحدهم شيئاً لغيره أو قضى له حاجة لم يمكث إلا قليلاً ثم يرجع إليه في طلب بعض أغراضه، ولا يهدي في الغالب إلا لذوي الجاه ديني أو دنيوي، ومن لم يكن له جاه لا يهدون له أبداً. كما هو مشاهد من حال الناس في زمننا ولا يعطون شيئاً بقصد المحبة والمودة والإخاء في الدين، وإنّما يعطون لتحصيل أغراضهم الفاسدة كما قدمنا حتى صارت ولائمهم من هذا المعنى مفاسد، ولهذا تحرز سيدنا رضي الله عنه من مقاصد العامة لفسادها ولم يخالطهم على ما هم فيه من كثرة التخليط، وربما يتوجه لإصلاح ذات البين فيما بينهم إذا طلبوه في ذلك لكنه لا يكلف أحد بإسقاط حقه، وينبه على ذلك بأنه لا ينبغي لمحافظته رضي الله عنه على حدود الشريعة.

ومن صفاته رضي الله عنه أنه لا يؤم أحداً إلا أن يكون في داخل داره وعياله ويصلي هو خلف الأئمة، إلا أن يكون مانع شرعي كأخذهم للرشوة أو غيره ولا يصلي وراءهم، وهذا كان في ابتدائه، وكان له إمام وهو العالم العلامة الفهامة الدراكة، الجامع بين الحقيقة والشريعة الإفادة وعلوم الطريقة، خازن سره وحافظ عهده ومحل وده وخليل أنسه أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد المشري، الشريف المنيف الكامل العفيف الحسني السائحي السباعي أصلاً، الموطن التكرتي من خط الجريد وهي معروفة من عمالة قسمطينة، ودارهم دار علم وصلاح ورشاد وفلاح، ولا زالوا إلى الآن من العلماء العاملين والأئمة المهتدين، وجلهم أخذ طريقة شيخنا رضي الله عنه، ويقصدونه بالزيارة من بلدهم نحو عشرين يوماً أو أزيد، ويأتون بالأموال العظيمة لسيدنا رضي الله عنه من دارهم وكسوة وتمر، وقد وافيتهم مراراً متعددة عند سيدنا ولا رأيت أحسن منهم سمتاً وديناً وعلماً، وجلهم علماء، منذ عرفنا سيدنا رضي الله عنه وتأتيه الوفود من جميع النواحي والهدايا، ما رأيت أحسن منهم في الأدب والتعظيم وحسن النية، ويعاملهم سيدنا بما لا يعامل به غيرهم من الإعراض عنهم وبعدم المبالاة لهم كما يفعل مع غيرهم، فكلمته رضي الله عنه في ذلك فقال لي:

ليسوا كغيرهم إنما يطلبون المقامات العلية والأحوال السنية. رضي الله عنهم ولا حرمنا وإياهم من خير هذا السند الكريم، ولا زال هذا السيد رضي الله عنه مع سيدنا رضي الله عنه من سنة ثمانية وثمانين ومائة وألف إلى الآن، وهو مع سيدنا بفاس عام ثلاثة عشر ومائتين وألف، فلما وصل سيدنا رضي الله عنه سنة ثمانية ومائتين وألف، تصدى للإمامة بنفسه رضي الله عنه لموجب قام به لا ينفك عنه ولا تصح صلاته إلا بنفسه، إلا إن قام به عذر شرعي فهو رضي الله عنه يصلي إماماً بالناس إلى الآن ولا يصلي خلف أحد إلا في الجمعة وهو شهر رمضان سنة ثلاثة عشر ومائتين وألف.

وأما شدة احتياطه في معاملاته ومناولته فيما يتعلق به وبأهله فمنها: أنه لا يشتري حاجة ممن علم بكسب الحرام أو أنه يخالط أحداً من أهل جانب المخزن، أو يكون اختلط ماله بماله وهذا دأبه وديدنه، وكثيراً ما ينهى أصحابه عن مخالطة هؤلاء، ويحثهم على ركوب متن الورع في أمورهم كلها ولا يرخص لهم في الحرام فيقول: ما لا أرضاه لنفسي لا أرضاه لغيري وما لا أفعله لا آمر به.

ومن ورعه رضي الله عنه أنه لا يأخذ شيئاً ولو كان تافهاً مما يحتاج إليه ممن لا يتقي الحرام ولا يتحرى في مكسبه، كل ذلك لا يفعله ولا يحب من يفعله. **ومن ورعه رضي الله عنه** أنه لا يستعمل في عبادته وأمور ديانته إلا ما خلصت طهارته خاصاً تاماً كاملاً مبالغاً في الاحتياط لدينه وإتقان عبادته التي هي وصلة بينه وبين ربه كما هو شأن الخواص من المخلصين، فيتحرى من البقعة والماء أطيب محلاً وأصفى حلاً. **ومن ورعه رضي الله عنه** أنه إذا أعطى شيئاً لا يحب أن يعود إليه لا بشراء ولا بهبة ولا بغيرهما، وبالجملة فورعه في كل شيء قد بلغ الغاية ووصل النهاية لا تدور معاملته إلا عليه ولا تصير إلا إليه على بصيرة في سبيله ومعرفة لدليله ويقول: إن الإنسان إذا رخص لنفسه في أكل المتشابه، فها هو ذاهب إلى أكل الحرام. ويقول: إن أصل الورع اتقاء الشبهات والمداومة على أكل الحلال مع الصدق مع الله في ذلك.

وأما زهده رضي الله عنه فلا أعظم منه ولا أكثر مباعدة عن الدنيا وأهلها فيما رأيناه ولا فيما سمعناه، قد أحرز قصبة السبق في مراتبه الثلاثة، ومآثر سيدنا أبي العباس الشاهدة على ذلك كثيرة، ودلائل قضاياه الظاهرة وأفاعيله الصادرة فيه غزيرة ولا يستقصى شيء من جزئياتها ولا بعض مرئياتها، وتقدمت حكايات تنبئ عن هذا المعنى في باب كرمه وسخائه.

وأما زهده في الجاه والظهور: فإنه رضي الله عنه لا يزال يلتمس الخفاء والإخمال في زوايا الأغفال والإهمال لا يبالي بإدبار من الخلق ولا بإقبال، ويفر من ملاقاة ذوي الوجاهة والرياسة ويحذر من ملاقاتهم ويقول: إنها فتنة في الدين. ويكره أن يعرفه أحد منهم إلا أن يتخيل صدقه ويعلم أن مجيئه لله، فيرجو له الخير ويعظه ويذكره وينصحه، وعادته رضي الله عنه مع ما ذكرناه قبل، فانظر رحمك الله هذا السيد الجليل ومنفعته العامة للإسلام وهو الكفيل.

ومن زهده رضي الله عنه في الجاه: ما وقع له مع بعض الأمراء من تركه لملاقاتهم بعد طلبهم له في الملاقاة، فامتنع منهم امتناعاً كلياً، فقد رقي سيدنا أبو العباس رضي اللهعنه مكاناً مكيناً ولاح في سمائه نوراً مبيناً، يعرف كل ذلك من صاحبه وخالطه ومارس أحواله وأفعاله، وهذا يدل على حريته كما قال القشيري: لا يكون العبد بقلبه تحت رقى شيء من المخلوقات، فيكون فرد الفرد لم يسترقه عاجل دنيا ولا آجل آخرة، ولا يملك شيئاً لا يرى المالك إلا الله، ولا يستولي على قلبه سواه. وسئل شيخنا رضي الله عنه عن الحر فأجاب بما يأتي: إن شاء الله في محله. وما ترى أحداً كمل في هذا الوصف في ما كمل فيه سيدنا أبو العباس رضي الله عنه، هو الحر على الحقيقة والممتاز بوصف الحرية على الخليقة كما قيل:

أتمنى على الزمان محالاً أن ترى مقلتاي طلعة حر

ولا تظن ببالك أو تتوهم في خيالك، أن أحداً من أهل عصرك ومصرك وبلادك وقطرك له من وصف الحرية ما لشيخنا رضي الله عنه، أو يحاكي فيه تمامه وكماله، ذلك وصف أنواره عليه لائحة وآثاره فيه واضحة، وأمره رضي الله عنه في هذا وفي غيره شهير، لا يخفى على ذي ميز من كبير أو صغير، رزقنا الله رضاه في الدنيا والآخرة وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

في دلالته على الله وجمعه وسوقه الأقوام بحاله ومقاله إليه

قد شرب سيدنا رضي الله عنه من هذا الحب الشريف ما أرواه، ونهل من بحره العظيم ومدده الجسيم ما أخذ بجميع عوالمه وقواه، وأفناه عن كل معلوم ومرسوم وغيبه أبداً في الواحد القيوم، فانصبغت بالتوحيد حقيقته، وامتزجت به ذاته وهويته، وتكيفت به روحه ونفسه ومعناه وحسه، وقالبه وقلبه وعقله ولبه، فصارت أحواله وأقواله وخلاله وفعاله وحركاته وسكناته وتقلباته وتصرفاته، كلها دالة على الله ورسوله، وجامعة على الله، وباباً لوصوله لا تدعو إلا إليه ولا تحوم إلا عليه، ولا توقفك إلا ببابه ولا تسندك إلا على جنابه، إذا رأيته ذكرت الله ونسيت ما سواه، واستيقظت لأول وهلة وانقشعت عنك سحائب الغفلة، ووجدت بقلبك تعظيماً وإجلالاً وتكريماً، وإذا جالسته تداركتك لمحاته وسرت فيك نفحاته، وعلق بك طيبه الفاتح ورأيت حسنه الواضح، وعلمت أنه الجليس الصالح ونور النبوة فيه لائح، لا يغيب أبداً جليسه ولا يعدم شيئاً من الخيرات أنيسة كما قال فيه بعض مادحيه:

هو من أناس لا يخيب جليسهم

البيت يقدح النور في قلب من أبصره ويبث محبة الله فيمن حضره، ويزج في الذكر من غشيه ويقذف في الجد من لقيه، رؤيته طب للقلوب وكلامه شفاء من العيوب، مجلسه مجلس حلم ووقار وإجلال وإكبار، لا يبتديه أحد بالكلام غالباً ولو كان في ذلك صائباً بل يفتحه هو، وإن أراد فيحصل به البغية والمراد، لا يكثر الحاضرون من الكلام لديه ولا يتسابقون فيما بينهم إليه، بل دأبهم الإنصات والأدب إلا من توجه له منه الخطاب والطلب، عظيم الهيبة ذو مهابة ظاهرة وسطوة قاهرة، لا يفاجئه أحد إلا صدمته هيبته ولا يداخله إلا ملكته محبته، وراثة محمدية ومنحة نبوية كلّما ازددت إليه قرابة ازددت منه مهابة، ولقد تعرض لنا المهمات فنريد أن نخبره فما نستطيع الإقدام عليه حتى يكون هو الذي ينبئنا بما لديه، وكثيراً ما ينبئنا عما نريده قبل أن نشرع فيه فيفتح لنا بذلك الباب في الكلام معه فنتبعه ونقتفيه، يتكلم مع الإنسان بما فيه وينبئنا عما يلاقيه ويوافيه، ويبين لنا ما خفي علينا أتم تبيين مما كان قد أضر به من أمر الدين، ويتحفه بالدواء والعلاج فيبرئ الخطب ويزيح الكرب، وتنمحي بأنواره ظلمة النفوس وتتجلى عنها المضائق والبؤس، يذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وينزع منها الإشارات واللطائف والحكم والمعارف فيذاق منه ذلك ذوقاً، ويزيد الحاضر محبة وشوقاً، ويمتلئ القلب منه سروراً وفرحاً وحبوراً، حتى يحلف الحالف عند سماع كلامه لكأنه يسمع كلام النبي ﷺ ويشافه نوره الأتم وسره الأعظم، وعلى كلامه سطوة تخضع لها النفوس وتحط لها الرؤوس، يجيب الحال أكثر مما يجيب المقال في بعض الأحوال، وإذا سمع كلامه أحد وخصوصاً من فيه قابلية القبول، تحول في الحين قلبه وطار به إلى الله لبه، يأتيه الإنسان في كرب وأحزان وجحود وكفران وضلال وطغيان ودنس وأدران، فيعود حزنه سروراً وجحوده شكوراً وبعده حضوراً ودنسه طهوراً وظلامه نوراً، فتنقلب به في القلوب حقائق الأعيان وتطيب به الأوقات والأحيان، وتجده يتكلم مع الرجل كلاماً عادياً وهو يفعل في قلبه الأفاعيل ويرحل به إلى الله المراحيل، ويجيب الرجل بكلمة أو كلمتين فيظفر عند ذلك بمرامه ويعثر على غرضه وغرامه، كأنما تلك الحاجة مجر كلامه، ويشكوه الرجل بعلل معنوية وأمراض نفسية يذكرها في باطنه وهو أمامه، فيجيبه عنها بعينها كأنّما سمع كلامه فيشفي علته وتنقلب نظرته، فيشاهد منة الله وإحسانه وتفضله وامتنانه، وما كان قط شاهدها قبل ذلك ولا تنبه لما هنالك، ويحضره الحاضرون ما بين متوجه وغافل ودنيوي وغيره، فيعمل في الجميع حاله ويؤثر فيهم مقاله، ويعمهم الفرح ويزول عنهم الترح، حتى يظن أحدهم أنه لا يبالي بالدنيا أبداً ولا يلتفت إليها بعد سرمداً، لما يلوح عليه حينئذٍ من اليقين بالله والفرح بأنعم الله، ويأتيه من أصيب في ماله وبدنه وعياله في غاية ما يكون من المشقة والضيقة، فإذا سمع كلامه انزاحت عنه الأتراح واعتراه السرور والانشراح كأنما سقي عنده الراح بالراح، وقد أتاه رجل من الإخوان قد امتحن بأخذ ماله من قبل السلطان فساءت أخلاقه وأحواله وسره وعلانيته

وأفعاله، فجلس بين يدي سيدنا رضي الله عنه في ملأ من أصحابه، فجعل ينصت لكلامه ويتكلم الشيخ رضي الله عنه على عادته في الدلالة على الله، ويذكر الناس بأنعم الله الظاهرة والباطنة، ويريهم أن ما ينزل بالعبد من المحن التي هي في الظاهر نقمة كلها رحمة من الله وفضل منه ونعمة، وأنه لا يفعل ذلك سبحانه إلا لحكمة، وجعل يوضح ذلك فتحول حال الرجل لحينه وظهر عليه أثر السرور والفرح، ويقول: الحمد لله يكررها فرحاً منه بنعمة الإسلام التي لم يقدر قدرها قبل ذلك، واستخفافاً بالدنيا التي رزئها ويقول: ما سمعت هذا قط ولا رأيته ولقد زرت غير واحد من الصالحين الأعيان في هذا الزمان، فما رأيت مثل هذا الكلام عند أحد، وقع مثل ذلك المرة بعد المرة، ويأتيه الرجل في كرب ووبال فينصرف عنه منشرح الصدر والبال، وتعود كربته عند رؤيته طرباً ويبصر الحاضرون من آياته عجباً، ذلك لما تكيف به من نور الحقيقة واتصف به من الرحمة للخليقة، حضرت من ذلك ما لا أحصيه ولا أستوفيه فهو يجود عليهم بحاله كما يجود عليهم بماله، ويرحمهم بما خوله من المعارف ورزقه من العوارف، فياض الإمداد كثير النفع للعباد رفيقاً بالحاضر والباد، كأنما الناس كلهم أبناؤه وإخوانه وأوداؤه، لا يزال حريصاً على نفعهم وزجهم إلى الله ودفعهم، يستشهد كثيراً بحديث: «**الخَلْقُ كُلُّهم عِيَالُ اللّهِ وَأَحَبُّهُم إلَيه أنْفَعَهُم لِعِيَالِهِ**» ويلهج به في كلامه لكون حالته تذهب إليه في كل شيء، ويسوق الخلق إلى الله بما أمكن ويكتفي بما يجده في الإنسان من قابلية الخير، ولو لم يكن فيه إلا وصف واحد ويقول العارف: إذا وجد فيك خصلة واحدة من الخير كالحياء والسخاء، أو أشياء من المحبة مثلاً، أو سلامة الصدر أو صدق اللهجة أو نحو ذلك عاملك لأجله وأخذ بيدك وحن عليك ويقول: إن الله يرحم العبد بسبب وصف واحد، ورحمة الله غالبة تلتمس السبب، فإذا وجدت أدنى شيء منه نزلت، وإذا اشتكى له أحد نفسه وذكر سوء حاله وقبيح فعاله، جذبه من النظر إلى ذلك للنظر إلى رحمة الله وعرفه أن الله يرحم بلا سبب، ثم يذكر قول الشاذلي رضي الله عنه: إن لم تكن لرحمتك أهلاً أن ننالها فرحمتك أهل أن تنالنا، ويقول: فائدة تذكر العبد مساويه أن يعلم منة ربه عليه، ويتحقق بفضله وإحسانه حيث يجد نفسه لا يعمل خيراً، وهو مع ذلك معافى منعم عليه سابحاً في بحر الفضل والإحسان فتلك أثواب منحها من الحق من محض الكرم والامتنان، وإذا تكلم أحد بما يشير إلى الدعوى وثناء منه على نفسه، قابله بالعكس وجعل يتكلم في عيوب النفس ودسائسها، ويظهر له خسائسها ودقائقها، وما اشتملت عليه من العيوب والنقائص والرذائل التي هو شأنها ووصفها، ولا تحب أن تتصف إلا بأوصاف الربوبية، كالكبر والعظمة مع أنها لا تحصى معايبها ولها من النقص مثل ما لله من الكمالات يعني لا نهاية لها، ولولا أن الله يحول بين المرء وبينها لهلك، ولو أنها خلي سبيلها لكفر بالله كما كفر بأنعمه ويقول: إذا أراد الله هلاك عبد وكله إليها ولم يزده شيئاً، وإذا أراد رحمته عرفه نعمته وألهمه شكرها وجنبه كفرها وذلك هو أصل كل خير، وما جاء أحد مظهراً للرخا غافلاً عن اللهجا إلا خوفه من سطوة الله وقهره وسرعة نفوذ قضائه، وأمره حتى يذهب خائفاً مذعوراً، وما جاءه خائف أو لاهف إلا سلاه ورجاه وعرفه فضل مولاه حتى يذهب فرحاً مسروراً، يريد بذلك جمع العبد في الحالتين على مولاه، وأن لا يقف مع شيء سواه، وإذا ادعى أحد بين يديه المحبة قال له: من علامات المحبة السعي في رضا المحبوب والوقوف عند أمره ونهيه واتباع قوله وفعله وينشد قول القائل:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وإذا ذكر له أحد نفسه عملاً صالحاً، لامه على ذكره أو عرفه بما جهل من أمره، فأخرج له دسائس ذلك العلم وعلائله حتى يتبين له أنه معلول مدخول، لا يترك لأحد شيئاً يعتمد عليه ولا عملاً يستند إليه ولا حالة يأنس بها، ولا الركون لشيء إلا لفضل الله ورحمته، وكثيراً ما يستشهد بقوله: ما عندنا إلا فضل الله ورحمته وشفاعة رسوله ﷺ، ويدل على الله بصحبة أهل الله الدالين على الله الجامعين عليه والموصلين إليه، ويذكر قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، وحديث المرء على دين خليله ويقول: أصل كل خير الخلطة واللقمة، كل ما شئت فمثله تعمل وخالط من شئت فمثله تفعل، وشكوته يوماً سوء حالي فقال لي: لا تكلمني الآن في شيء من ذلك، وافعل ما آمرك به، وأشار علي بمجالسته رضي الله عنه فقلت له: يا سيدي من الأفضل؟ هل النوافل والأذكار وغير ذلك أم مجالسة الأشياخ؟ فقال بل مجالسة الأشياخ أفضل لا يعادلها شيء، فجلستك بين يدي ولي أفضل من الدنيا وما فيها، لما ورد: جلوسك بين يدي ولي قدر حلب شاة الخ.

ولا شك أن مجالسته رضي الله عنه ترياق ومجرب للأمراض القلبية والعلل النفسية، وكم تعرض لنا ولغيرنا أمراض معنوية وتتراكم على القلب ظلمات ردية، فتنجلي بسبب مجالسته، والحمد لله حق حمده وكما ينبغي لجلاله: لا أحصي ثناء عليه. ويقال في المعنى: النظر في التقى استقامة وفي المخصوص كرامة، ومن رحمة الله بعبده وعنايته أن يسخر له قلب مخصوص من أهل ولايته ويقال: كل الناس يحبون المخصوص، والحكمة أن يحبك المخصوص، ومن لم يلق صاحب بصيرة لم تفتح له بصيرة، وليس شيخك من تجعل بينك وبينه عهداً بلسانك وتعتقد مشيخته بجنانك، إنما شيخك من جذبك بقلبك وأخذ بمجامع لبك، ونفعتك نظرته وحاطتك همته، ويخاطب كل واحد على قدر فهمه وعلى حسب علمه، وبما يليق من حاله وينبغي لأمثاله، فيخاطب الجاهل بالتعلم والعامل بالعمل وذا الشرعية بالتوبة وذا الطاعة بعدم النظر إليها، وبرجاء رحمة الله فيها، ويعجبه المشفق من عصيانه ويرق له ويحن عليه، ويدل على الله بكل حال وفي كل حال، وفي كل من الطاعة والمعصية دلالة على الله، فالطاعة تدعو إلى شكر الله والمعصية تلجئ إلى التوبة إلى الله والنعمة والنقمة كذلك، هذا تعرفك بمولاك والأخرى ترفع بها إليه شكواك ويذكر قولهم رضي الله عنهم: من لم يقبل على الله بسوابغ الامتنان سبق إليه بسلاسل الامتحان. ويجيد الكلام في هذا الأسلوب جداً، ويتفنن في الدلالة على الله تفنناً ويتلون فيها تلوناً، ويبين فيها كيفيات طرائق وخفيات حقائق، فتارة يأتيها من حيث الأرضيات وتارة من حيث السمويات، ويوضح في طريقي الجذب والسلوك لأهلها مهامه فيحاً، تارة تصريحاً وتارة تلويحاً، ويجري في كلامه ذلك ما لا تدركه العقول ولا تحيط به النقول، مجالسه في ذلك رياض مزهرة كل مجلس وما يتفق فيه بحسب حكم الوقت، وما يفتحه الله له وعلى يديه من أرزاق الحاضرين، وربما يقرر في المجلس الواحد من ذلك أنواعاً منوعة، ومعارف وأسراراً وتذكرة واعتباراً، وحمل على شكر واصطبار وسكون تحت مجاري الأقدار، وحمل على العمل وترك الأمل، وترغيب وترهيب وتقريب وتحبيب، وتبشير وتحذير، كل ذلك بما يجري في محفل واحد، فيأخذ منه كل من الحاضرين نصيبه ويشفع به كل على قدر حاله، وقد يغلب عليه في المجلس الواحد نوع واحد منها، وتجده إذا تكلم في باب من أبواب الدلالة أمتع فيها جداً، وأوسع فيه المجال ويشفي منه صدور الرجال، بعبارة واضحة وإشارة حسنة، ويقضي منه بالعجب العجاب يتكلم بعبارة الناس الجارية بينهم، ويبين لهم بلسانهم، فيفهم عنه العالم والأمي والفطن والغبي ويبين لهم مراتب الدين ومقامات اليقين، ويريهم الطريق الموصلة إليها والمقدمة المنتجة لها، يبينها مقالاً ويبثها في القلوب حالاً، فيبين التوبة وكيفيتها وما يوصل إليها، والزهد وسببه والشكر والصبر وكيفيتهما، والرضا والمحبة وكيفيتهما، وترك التدبير والاختيار مع الله، وهذان الأخيران عمدة كلامه ومدار مرامه، ويبرهن على ذلك بما لا يجهله أحد ويبين مواقع ذلك مما يعمله كل أحد، حتى يعلم ذلك علماً ويحصل ذوقاً وفهماً ويباشر القلب يقيناً وجزءاً، ذلك ديدنه وشعاره ودأبته وتسياره، ناصح للعباد حريض على الهداية لهم والإرشاد، يصرف وجوه الغافلين بالوجهة إلى الله ويوقظهم للتوبة، ويحيي قلوباً أماتها الهوى بمدد الإيمان ونور المحبة، ويتلو عليهم ما ورد فيها آية آية وحديثاً حديثاً، وكم من واحد تاب على يديه ورجع عن سوء عمله بعد أن كان منهمكاً في عصيانه مستغرقاً في الغفلة سائر أحيانه، وما أشد اعتناءه بطالب التوبة، فإذا جاءه صرف كليته إليه وأشفق منه وعطف عليه، ويذكر حديث: لله أفرح بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها، ويقول: انظر كيف أكد أمرها اهتماماً بشأنها، فكررها في موضع واحد مرتين فقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦، ٢٧] وانظر هذه الرحمة منه سبحانه لعبده حيث لا يريد أن يعذبه بالمعصية، وإنما يريد أن يتوب عليه ليرحمه، فما أوسع هذا الإفضال وأجزل هذا النوال من الكريم المتعال، وكثيراً ما يحذر من مخالطة أقران السوء وغيرهم، يحذر منها الغافلين مخافة أن يزدادوا بها غفلة، والمنتبهين مخافة أن يصدوا عماهم بصدده، ويلجأ في ذلك كله إلى الملك الديان ويستشهد كثيراً بقوله ﷺ: «**المَرءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُر أحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِل**» ويقول: اختر لصحبتك من أطاع، فإن الطباع تسرق الطباع، ويحذر من حب الدنيا وينفر عنه لكونه قاطعاً عن الله وصاداً عن الوجهة إليه، ولا تصح الوجهة إليه مع بقاء شيء من حب الدنيا لديه، فقد انفرد لمولاه وتجرد عن سواه، لم تبق له علاقة تجذبه ولا أمنية تصحبه، وما عطل الخلق وحجبهم عن الله إلا الغلط والجهل المركب في كمال الإيمان بالله، فلو تحققوا أنهم ليسوا على شيء ولا حصل لهم كمال الإيمان الحقيقي واستغاثوا بالله عند كمال عجزهم وضعفهم وتحققهم بذلك، لأجابهم

لاضطرارهم بما هنالك لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] وكل ما طلبوا زيادة معرفة أعطوها لاضطرارهم في طلبهم بمشاهدتهم التقصير من أنفسهم في كل شيء، وبقدر شهود التقصير يقوى الاضطرار إلى العالم القدير، ومن بديع صنعه في الخطاب أنه إذا أرشد أحداً إلى مولاه ونبهه على غلطه وهواه، أرشده برفق ولين ولاطفه بخطاب مبين، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ويحذر من المعاصي القلبية كالكبر والعجب والرياء والسمعة ونحو ذلك، أكثر مما يحذر من الظاهرة ويقول: إنها خفية والأخرى لا تخفى، ويبالغ في تقبيح العجب والكبر ويقول: إن صاحبهما ممقوت وهما من أعظم المعاصي القاطعة عن الله عزّ وجلّ، وأعظم دليل على هذا قصة آدم عليه السلام، ومخالفة إبليس حين أُمر بالسجود فأبى واستكبر، هذا تاب عليه ربه وهداه، وهذا طرده من رحمته وأرداه، ويحذر كثيراً من الدعوة الكاذبة ويقول إن صاحبها يخشى عليه، والعياذ بالله من سوء الخاتمة عافانا الله من ذلك بمنه وكرمه، فإذا تحقق الإنسان بأوصافه الناقصة، علم أن الأوصاف الكاملة إنما هي لله سبحانه، فإذا تحقق بعجز نفسه تحقق بوصف القدرة لربه، يعلم أنه القوي بقهره ويبني تعريفات الحق سبحانه وتعالى للعبد في نفسه ويتلو قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] ويقول: إن في كل حال من أحوال العبد دلالة على ربه، وإن الله سبحانه وتعالى خلق العبد وأحاط به العجز في حركاته وسكناته وسائر أحواله وتقلباته، فإذا جلس أعياها لجلوس وإذا قام أعياه القيام، وإذا أطال النوم مل وإذا أطال التيقظ اضطر إلى المنام، وإذا توكأ أعياه التوكؤ وإذا أكل أثقله الشبع، وإذا ترك الأكل جاع، وقس على هذا ليكون مفتقراً في كل أحواله إلى مولاه، ويعترف بقدرة سيده وغناه وينفض يده من كل ما سواه، تعرفاً منه سبحانه وتعالى إليه وجمعاً له لو شعر عليه، فسبحان الحكيم العليم الذي أحاط بكل شيء علمه ونفذ في كل شيء أمره وحكمه، ويبين الشيخ رضي الله عنه كيف تعرف سبحانه بهذه الأمور التي تتوارد عليهم من شدة ورخاء وعافية، وفتنة وخوف وأمان ومرض وصحة، وتحول حال القلب من قبض وبسط وعزم ونقض ويتلو قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] ويقول: إن الناس إذا كانوا في شدة أحسن منهم إذا كانوا في عاقبة لو كانوا يعلمون، لأنهم إذا أوسعتهم النعم كانوا غافلين لاهين ساهين، فإذا مستهم الضراء اضطرهم ذلك إلى دعاء مولاهم جبراً، ولا تمكنهم الغفلة حينئذٍ كما أمكنتهم مع النعمة مجالهم، حينئذٍ أحسن لوقوفهم بباب مولاهم وسؤالهم منه دفع بلواهم، ويذكر قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ [الإسراء: ٨٣] ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] ويعلم الناس اليقين ويريهم كيف يعرفونه ويتوصلون إليه ويقول: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٩] أليس الله برحيم للعباد ألم يحسن إلينا سائر عمرنا، فما بالنا نتهمه، ولو أقسمت على الله سبحانه باسمه الأعظم أن لا يعطيك ما كان قسم لك لأعطاك إياه، ولو طلبت ما لم يقسمه لك لم تنله أبداً جف القلم بما أنت لاق ويقول: إن الله يختبر العبد بالفاقة وبتيسير شيء من غير الحلال، فإذا صبر قليلاً فتح له فتحاً لم تصبه خصاصة بعده ويقول: إن الشيء إذا أطلق على الإنسان من عند الله وبتسخير منه دام استمراره ولم ينقطع، ويقرب ذلك بالتمثيل بالأمور المشاهدة ويدل برحمة الله على الله ويعرف الناس إياها، ويقرب ذلك للأفهام برحمة الوالد للولد ولا يخفى على أحد، فتكون شفقته عليه من شفقة الله لعباده ورحمته إياهم، ويذكر حديث: الله أرحم بعباده من هذه بولدها. ويذكر الناس بنعمة مولاهم وما حولهم وأولاهم، ويرشد بذلك إلى محبة الله سبحانه والحياء منه أن يعصى بسبب ما أسداه لعبيده، وما يجريه عليهم دائماً وأبداً من إفضاله وإحسانه، ويتلو: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] ويكثر الكلام في ذلك جل أوقاته وغالب أحيانه، ويبين ما هو مستمر على العبد دائماً وأبداً من نعمة النفع والدفع والمحسوسة والمعنوية والظاهرة، يفصل كل ذلك تفصيلاً ويأتي عليه بياناً وتحصيلاً، فيبين أن الإيمان بالله ورسله من الناس من الباطنة الدائمة المستمرة على العبد، وأن الله يمده به في كل لحظة ويمسكه سبحانه عليه كل خطوة خطوة، ولم يسلط عليه فيه شيطاناً مريداً يفسده عليه، ولا جباراً عنيداً يسلب عنه ما منه لديه، عناية منه سبحانه ورحمة وفضلاً ونعمة، ولو سلط الشيطان على إفساده كما سلطه على إفساد الأعمال لكفر كثيراً من الناس بعد إيمانهم وانقلبوا بعد ربحهم إلى خسرانهم، ولكن الله امتن على الإنسان بحفظه كما امتن بتخصيصه بسابق الفضل والإحسان، وبأي سبب استحق العبد هذه النعمة حيث أعطيها يوم قدرت المقادير وقسمت القسم، حيث لا وجود لذاته هناك ولا عمل يتقرب به إلى معطيها ولا شيء يدلي

به ويستند إليه، بل هو محض الجود والامتنان والفضل والإحسان، ولو شعر الإنسان بهذه النعمة العظمى وعرفها لاستغرقه الفرح بالله واستولى عليه سلطان المحبة والشغف بهذا المعطي الكريم والمولى العظيم، الذي خلق فهدى وتفضل وأعطى وخصص أزلاً واجتبى، ولا يزال رضي الله عنه في محافله يعد نعم الله على عبده المتصلة والمنفصلة وما ناوله منها في أرضه وسمائه، ثم يتلو: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] والناس كلهم غرقى في بحر النعم، إلا أنهم لا يشكرون: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وإذا أراد الله بعبد خيراً وأن يجعله من خواص عباده، عرفه ما عليه من النعم وألهمه شكرها، ولم يزد شيئاً على ذلك يكون به مخصوصاً، فكل الناس منعم عليهم، والمخصوص من شاهدها، ويقول: الشكر باب الله الأعظم وصراطه الأقوم ولهذا قعد الشيطان بسبيله يصد عنه المؤمنين، ثم يذكر شاهداً على ذلك قوله تعالى حكاية قول اللعين: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، ويقول أقرب الأبواب إلى الله باب الشكر، ومن لم يدخل في هذا الزمان منه، لم يدخل، لأن النفوس قد غلظت، يعني فلا تتأثر برياضة ولا بطاعة، ولا تنزجر بمحاسبة ولا بمناقشة، فإذا استغرقها الفرح بالنعم غابت عن ذلك كله وطوت مسافتها، وكل وعد في كلام الله نجده مقروناً بالمشيئة إلا الشكر فقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] وأكده بلام القسم ونون التوكيد ويقول لنا عند ما يتلو هذه الآية، هذه اللام هنا للقسم كأنه يستفهمنا فنقول له: نعم ويقول: انظر كيف قدم الله الشكر على الإيمان اعتناء بشأنه فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وربّما عبر به عن الإيمان وفسره به كما تشير إليه المقارنة في هذه الآية فيقول: الإيمان هو الفرح بالمنعم فيجعل الفرح الذي هو شكر القلب إيماناً ولا إشكال أن الإيمان لا يكون حقيقاً إلا معه إذ هو نتيجته ولازمه، وقد يكون العطف في الآية للتفسير، فيؤخذ منها ما قاله رضي الله عنه، من أن الإيمان هو الشكر، ولو عرف الإنسان حقيقة الشكر لملئ قلبه وطار عقله محبة في الله وسروراً وفرحاً وحبوراً جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وما أحسن إليك في الحقيقة إلا ربك وهو الذي سخر لك قلوب عباده، فلو شاء لعكس، فلم ينفعوك بشيء، يدل بذلك كله على شهود النعمة من الله، ويرقى من شهود الواسطة إلى المنعم سبحانه وأنه لا منعم إلا هو ولا محسن ولا نافع سواه، وأن غيره لا يملك لنفسه فضلاً عن غيره ضرر ولا نفعاً، ولا جلباً ولا دفعاً، وكل ما يعاملك ويأخذ بيدك فإنما ذلك لعلة وغرض، حتى العارف إذا أخذ بيدك ورحمك، إنما فعل معك ذلك لأجل مولاك، فإنما راعاك لوجهه فذلك لعلة، إلا الله سبحانه وتعالى فإنما يعاملك ويرحمك فضلاً وإحساناً وكرماً وامتناناً، لا لأمر سابق ولا لشيء لاحق إنما هو محض جود من واجب الوجود، فلا ينبغي للعبد أن يعرف إلا مولاه، وأن لا يرى إلا إحسانه ورحماه، فهو الذي أحسن إليه وأجرى منته عليه، يحبب بذلك كله العبد في مولاه ويرشده أن لا يطلب سواه ولا يلتفت بقلبه لما عداه، وأن يجمع المطالب كلها في مولاه ولا يتعلق له همة بسواه، ويدل على الله وحده وعلى توحيده خالصاً وعلى محبته صرفاً ويقول: ينبغي للعبد أن لا يطلب إلا مولاه مخلصاً لا لحظ عاجل أو آجل، فإذا طلبه كذلك حصل له في ضمنه الدنيا والآخرة، وفرق بين من يطلبك ومن يطلب لك، فليس من أتاك زائراً ثم قال: أردت منك كذا وكذا، كمن أتاك محبة فيك ورغبة في رؤيتك لا لشيء آخر، شتان ما بينهما، فيصرف رضي الله عنه من الملحوظ والحظوظ وكل ما يشعر بالشعور بالنفس ويتلو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥] ويسمى العمل على الحظ شركاً ويتلو على طريق الإشارة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] وكثيراً ما يتكلم فيه فيرشد إلى المحبة ويقول: أصل كل شيء وأساسه المحبة وهو قوله تعالى في الحديث القدسي: كنت سمعه، وأصل سبب المحبة هو شهود الحسن والإحسان وبها يرتقي درجة الإيمان، وما تكلم رضي الله عنه في فن من فنون الطريق إلا أشار في كلامه إليها ودل بحاله ومقاله عليها، وحض على التقرب للمحبوب، والتودد والتملق والتواضع له، وكثيراً ما ينشد قول القائل:

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل … إذا رضي المحبوب صح لك الوصل
تذلل له تحظ برؤيا جماله … ففي وجه من تهوى الفرائض والنفل

ويرشد إلى ترك التدبير والاختيار مع الله تعالى ويكثر الكلام فيه دائماً ويتلو شاهداً على ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ [النساء: ٦٥] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟

﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [النور: ٥١]، وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ [القصص: ٦٨] ويقول: إنما يدبر من يعلم عواقب الأمور، ومن لا يعلمها كيف يدبر وأي شيء يدبر، كما في بعض الآثار القدسية: «**ابن آدم تريد وأريد ولا يكون إلا ما أريد، فإن سلمت لي فيما أريد أعطيتك ما تريد وإن نازعتني فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد**». ويعد التدبير مع الله من الشرك لأنه تعالى منفرد بالإيجاد والتدبير: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] فمن دبر في ملكه شيئاً فقد تعدى ونازع أحكام الربوبية، فمن دبر لنفسه عاد تدبيره عليه وبالاً ويدل على الرضا بفعل الله والتسليم لأحكام الله، لأنه سبحانه الحكيم وبأنه الرحيم، فإذا ذكرت له حادثة ألمت ومصيبة نزلت قال: من أسمائه سبحانه الحكيم، وهو الذي لا يفعل الشيء إلا لحكمة ولا تخلو أفعاله عنها أبداً، ولو كشف للعبد عن أسرار القدر لرأى تلك الأفعال التي هي في الظاهر نقمة على غاية ما يكون من الإحكام والإتقان وأنها لا ينبغي أن تكون إلا كذلك ولا يختار لنفسه غيرها، وتنزل النازلة بالعبد هي في ظاهرها مصيبة وفي باطنها رحمة، ينتقذه بها مما هو أشد مثلاً أو يدفع عنه بها فتنة في دينه، والله ما قضى الله لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيراً له، ويدل على الله بأسمائه وشهود صفاته ويقرر ذلك بما يبهر العقول وتعجز عنه النقول مما لا يصل فهم مثلي إليه، ويقول: أن يوصف واحد منها موجب للتحقق بجميعها ومستلزم له ويأتي على تبيينه حتى يصح بنوره للأفهام، ثم يتجاوز ذلك إلى مرتبة أعلى منها وهي شهود الذات العليا والغيبة فيها ويقول: شهود الصفات حجاب عن شهود الذات وكثيراً ما يتكلم في هذا المعنى وفي البقاء بعد الفناء، ومحو أوصاف العبد بظهور أوصاف ربه فيه، ويستشهد بالحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم: «**مَنْ عَادَى لِي وليّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فإذَا أَحْبَبْتهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلِهِ الَّتي يَمْشِي بِهَا**» وفي رواية: كنته وهذه الرواية أصرح في وجه الشاهد والله أعلم. ويقول: إن الوقوف عند كل مقام من المقامات يوجب القطع عن المقصود ثم يتلو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] ويرحم الله القائل حيث قال:

ومهما ترى كل المراتب تجتلي ... عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا
وقل ليس لي في غير ذاتك مطلب ... فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنا

وربما يتكلّم في الفناء عما سوى الله تعالى وينشد:

دع العلوم ولا تبق الفهوم ولا ... تبق لإياك لا عيناً ولا خبرا

هذا ما أمكنني في هذا الباب جمعه، وما جمعت منه إلا اليسير مما تكرر على السماع الأيام والليالي غاية التكرير، وقرر للإفهام المرة بعد المرة غاية التقرير، حتى علق منه ما علق بالبال ورسم منه ما رسم في الخيال، مما استرقت سمعه وأحببت هنا ضمه وجمعه ليكمل به غرض الكتاب، وما هو منه إلا الخالص واللباب، رزقنا الله به الانتفاع وجعلنا من أهل المحبة والاتباع آمين.